الدولة الدينية

الدولة الدينية

هي الدولة التي تتوحد فيها السلطة مع الدين ، وتجعل سلطان الحاكم دينيًا وشأنًا من السماء وبالتالي لا سلطة للبشر .

وساد هذا النوع من الحكم في :

* **في بلاد فارس** عندما كان كسرى يحكم على أنه إله أو ابن إله .

فكان قانونه هو قانون الإله ولا يحق لأحد من البشر الاعتراض عليه أو المراجعة فيه .

* **كذلك كان في قيصرية الروم وذلك في** : عصر الوثنية عندما كان القيصر إلهًا ، عهد النصرانية عندما كان البابا يتوج القيصر تتويجًا دينيًّا في الكنيسة وكانوا يحتكرون سلطان الدين ، وسلطان اللاهوت والكهنوت فكانوا «بابوات ، أباطرة » في نفس الوقت .

كان قديمًا في العهد الفرعوني القديم عندما كان الفرعون إلهًا أو ابن إله وكان يقول : ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات:٢٤] .

﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ [القصص:٣٨] .

ثم بدأت في أثينا في التاريخ الإغريقي مرحلة جديدة من الديمقراطية بعد سقوط الدولة الثيوقراطية «الدولة الدينية» كان احتكار القلة من السادة الملاك الفرسان الأشراف كانت معهم السلطة ولم يكن لجمهور الناس من العامة .

* وعندما بدأت مرحلة النهضة الأوروبية الحديثة جاءت العلمانية ..... وجاءت فلسفة الأنوار الوضعية لتقتلع الفلسفة الكونية والسلطة الدينية من جذورها ، وحلت سلطة الشعب محل اللاهوت وجعلت الإنسان سيد الكون .

* **ففي الدولة الدينية** كانت هناك «لاهوت وسماء ، وحكومة تحكم بالحق الإلهي ولا وجود لسلطة الأمة والشعب» .

* **وفي الدولة العلمانية** أصبح هناك أُمة ، شعب ، حكومة تحكم باسم الأمة والشعب ولا سلطان للحاكمية الإلهية والشريعة الدينية في تدبير سياسة هذه الدولة العلمانية .

* **السياسة في مفهومها الشرعي والوضعي تعني أمرين :**

أولهما : الخطوات الإجرائية التي يرتضيها المجتمع ويتخذها ولي الأمر لتنفيذ ما تنص عليه قوانين الدولة ومنهجها العام داخلي وخارجي .

لا سياسة في الدين ولا دين في السياسة :

سبب نشأة هذه المقولة هو رد فعل لما كان يحدث في الغرب من حكم الكنيسة وتدخلها في كل شيء «**الدولة الدينية**» ؛ لأنهم كانوا يعتبرون أن الدين معناه الكنيسة وسلطة البابا واستبداد رجال الكهنوت بالضمائر والأرواح .

لقد أرادوا أن يطبعوا على الإسلام ما طبع على المسيحية في الغرب وحيث إن النهضة في منظورهم لم تتم هناك إلا بعد التحرر من سلطان الدين ، وكذلك يجب أن تقوم النهضة في الشرق على أنقاض الدين، وظهرت بذلك شعارات «الدين لله والوطن للجميع» .

أي أن الدين مجرد علاقة نفسية بين الإنسان وربه ، ولا مكان له في حياة الناس الاجتماعية ، ومن هنا تبلورت فكرة الدولة العلمانية .

أما الإسلام فهو نظام شامل يتناول مظاهر الحياة جميعًا ، فهو دولة ووطن أو حكومة وأمة ، وهو خلق وقوة أو رحمة وعدالة ، وهو ثقافة وقانون أو علم وقضاء ، وهو مادة وثروة ، أو كسب وغنى ، وهو جهاد ودعوة أو جيش وفكرة ، كما هو

عقيدة صادقة وعبادة صحيحة سواء بسواء : ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ﴾ [النحل : ٨٩] (١) .

وبذلك وجب على كل مسلم أن يعمل على إقامة دولة الإسلام . والمسلمون آثمون جميعا حتى يتحقق الحكم الإسلامي .

ويلزم المسلم في ذلك :

أولًا : إنكار الوضع المنحرف المخالف للشرع وأضعف الإيمان بالقلب .

ثانيًا : العمل على إعادة الحياة الإسلامية و الحاكم الإسلامي (٢) .

والتاريخ يؤكد لنا ذلك في حرص الرسول ﷺ على العمل على إقامة الدولة الإسلامية ، وبعد وفاته انشغل الصحابة باختيار الإمام قبل دفن الرسول ﷺ .

وفى رسالة تحت راية القرآن تحت عنوان: لو كانت لنا حكومة يقول الإمام البنا :

«لو كانت لنا حكومة إسلامية صحيحة الإسلام صادقة الإيمان ، مستقلة التفكير والتنفيذ ، تعلم حق العلم عظمة الكنز الذي بين يديها ، وجلال النظام الإسلامي الذي ورثته ، وتؤمن بأن فيه شفاء شعبها وهداية الناس جميعًا .. لكان لنا أن نطلب إليها أن تدعم الدنيا باسم الإسلام ، وأن تطالب غيرها من الدول بالبحث والنظر فيه ، وأن تسوقها سوقًا إليه بالدعوات المتكررة والإقناع والدليل والبعثات المتتالية ، وبغير ذلك من وسائل .

ولاستطاعت أن تجدد حيوية الشعب ، وتدفع به نحو المجد والنور ، وتثير في نفسه الحماسة والجد والعمل.

---

(١) نحن في مصر في دولة مسلمة تحتاج إلى إصلاح بعض مظاهرها وقوانينها ، وحاكم مسلم يحتاج إلى التخلص مما يخالف شرع الله في ممارسته وحكمه وإصلاح الدولة حتى تكون دولة مرجعيتها شرع الله .

(٢) رسالة التعاليم ، طبعة دار الكلمة ، مجموعة الرسائل .

عجيب أن تجد الشيوعية دولة تهتف بها ، وتدعو إليها وتنفق في سبيلها ، وتحمل الناس عليها . وأن تجد الفاشية والنازية أممًا تقدسهما ، وتجاهد لهما ، وتعتز باتباعهما ، وتخضع كل النظم الحيوية لتعاليمهما ، وأن تجد المذاهب الاجتماعية والسياسية المختلفة أنصارًا أقوياء يقفون عليها أرواحهم وعقولهم وأفكارهم وأقلامهم وأموالهم وصحفهم وجهودهم ، ويحيون ويموتون لها .

ولا نجد حكومة إسلامية تقوم بواجب الدعوة إلى الإسلام ، الذي جمع محاسن هذه النظم جميعًا وطرح مساوئها ، وتقدمه لغيرها من الشعوب كنظام عالمي فيه الحل الصحيح الواضح المريح لكل مشكلات البشرية ، مع أن الإسلام جعل الدعوة فريضة لازمة ، وأوجبها على المسلمين شعوبا وجماعات قبل أن تخلق هذه النظم ، وقبل أن يعرف فيها نظام الدعايات : ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران:١٠٤] .

ولكن أنى لحكامنا هذا ، وهم جميعا قد تربوا في أحضان الأجانب ، ودانوا بفكرتهم ، على آثارهم يهرعون ، وفى مرضاتهم يتنافسون ؟ ولعلنا لا نكون مبالغين إذا قلنا : إن الفكرة الاستقلالية في تصريف الشؤون والأعمال لم تخطر ببالهم ، فضلا عن أن تكون منهاج عملهم .

لقد تقدمنا بهذه الأمنية إلى كثير من الحاكمين في مصر ، وكان طبيعيًّا ألا يكون لهذه الأمنية أثر عملي . فإن قومًا فقدوا الإسلام في أنفسهم وبيوتهم وشؤونهم الخاصة والعامة لأعجز من أن يفيضوه على غيرهم ، ويتقدموا بدعوة سواهم إليه ، وفاقد الشيء لا يعطيه .

ليست هذه مهمتهم أيها الإخوان ، فقد أثبتت التجارب عجزهم المطلق عن أدائها ، ولكنها مهمة هذا النشء الجديد ، فأحسنوا دعوته ، وجدُّوا في تكوينه ، وعلِّموه

استقلال النفس والقلب ، واستقلال الفكر والعقل ، واستقلال الجهاد والعمل ، وملؤوا روحه الوثابة بجلال الإسلام وروعة القرآن ، وجندوه تحت لواء محمد ورايته ، وسترون منه في القريب الحاكم المسلم الذي يجاهد نفسه ويسعد غيره .

*** استماتت الغرب ليثبت فكرة أن الإسلام لا علاقة له بالسياسة ولا حيلة له بالدولة .**

ووقف الإخوان والمجاهدون من رواد الصحوة الإسلامية ليؤكدوا للجميع أن الإسلام دين شامل يتناول جميع مناحي الحياة ، والسياسة جزء منه .

يقول الإمام البنا في علاقة الدين بالسياسة :

قلما تجد إنسانًا يتحدث إليك عن السياسة والإسلام إلا وجدته يفصل بينهما فصلا ، ويضع كل واحد من المعنيين في جانب ، فهما عند الناس لا يلتقيان ولا يجتمعان ، ومن هنا سميت هذه جمعية إسلامية لا سياسة ، وذلك اجتماع ديني لا سياسة فيه، ورأيت في صدر قوانين الجمعيات الإسلامية ومناهجها « لا تتعرض الجمعية للشؤون السياسية .

وقبل أن أعرض إلى هذه النظرة بتزكية أو تخطئة ، أحب أن ألفت النظر إلى أمرين مهمين :

أولهما : أن الفارق بعيد بين الحزبية والسياسة ، وقد يجتمعان وقد يفترقان ، فقد يكون الرجل سياسيا بكل ما في الكلمة من معان وهو لا يتصل بحزب ولا يمت إليه ، وقد يكون حزبيا ولا يدرى من أمر السياسة شيئًا ، وقد يجمع بينهما فيكون سياسيا حزبيا أو حزبيا سياسيا على حد سواء ، وأنا حين أتكلم عن السياسة في هذه الكلمة فإنما أريد السياسة المطلقة ، وهى النظر في شؤون الأمة الداخلية والخارجية غير مقيدة بالحزبية بحال [1] .

---

(١) يقال الآن : لا نريد حزبا على أساس ديني .

والثاني : أن غير المسلمين حينما جهلوا هذا الإسلام ، أو حينما أعياهم أمره وثباته في نفوس أتباعه ، ورسوخه في قلوب المؤمنين به ، واستعداد كل مسلم لتفديته بالنفس والمال ، لم يحاولوا أن يجرحوا في نفوس المسلمين اسم الإسلام ولا مظاهره وشكلياته ، ولكنهم حاولوا أن يحصروا معناه في دائرة ضيقة تذهب بكل ما فيه من نواح قوية عملية ، وإن تركت للمسلمين بعد ذلك قشورًا من الألقاب والأشكال والمظهريات لا تسمن ولا تغنى من جوع ... فأفهموا المسلمين أن الإسلام شيء والاجتماع شيء آخر ، وأن الإسلام شيء والقانون شيء غيره ، وأن الإسلام شيء ومسائل الاقتصاد لا تتصل به ، وأن الإسلام شيء والثقافة العامة سواه ، وأن الإسلام شيء يجب أن يكون بعيدا عن السياسة .

فحدِّثوني بربكم أيها الإخوان ، إذا كان الإسلام شيئًا غير السياسة وغير الاجتماع ، وغير الاقتصاد ، وغير الثقافة ، فما هو إذن ؟ أهو هذه الركعات الخالية من القلب الحاضر ، أم هذه الألفاظ التي هي كما تقول رابعة العدوية : استغفار يحتاج إلى استغفار ، أهذا أيها الإخوان نزل القرآن نظاما كاملًا مفصلًا : ﴿ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل:٨٩] .

هذا المعنى المتضائل لفكرة الإسلام ، وهذه الحدود الضيقة التي حدد بها معنى الإسلام ، هي التي حاول خصوم الإسلام أن يحصروا فيها المسلمين ، وأن يخدعوهم بأن يقولوا لهم : لقد تركنا لكم حرية الدين ، وأن الدستور ينص على أن دين الدولة الرسمي هو الإسلام .

أنا أعلن أيها الإخوان من فوق هذا المنبر بكل صراحة ووضوح وقوة ، أن الإسلام شيء غير هذا المعنى الذي أراد خصومه والأعداء من أبنائه ، أن يحصروه فيه ويقيدوه به ، وأن الإسلام عقيدة وعبادة ، ووطن وجنسية ، وسماحة وقوة ، وخلق ومادة ، وثقافة وقانون ، وأن المسلم مطالب بحكم إسلامه أن يعنى بكل

شؤون أمته ، ومن لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم .

وأعتقد أن أسلافنا رضوان الله عليهم ما فهموا للإسلام معنى غير هذا ، فبه كانوا يحكمون ، وله كانوا يجاهدون ، وعلى قواعده كانوا يتعاملون ، وفى حدوده كانوا يسيرون في كل شأن من شؤون الحياة الدنيا العملية قبل شؤون الآخرة الروحية ، ورحم الله الخليفة الأول إذ يقول : «لو ضاع منى عقال بعير لوجدته في كتاب الله» ا.هـ .

وقد رد على هذه الشبهة الشيخ عبد المجيد الشاذلي [1] في كتابه الحكومة الإسلامية رؤية تطبيقية معاصرة ، وأورد في رده تعليق من أ. محمد قطب وهذا هو الرد نقلناه كاملًا لزيادة النفع :

شبهات وردود

الشبهة الأولى : مغالطات ما يسمى بالدولة الدينية أو الدولة الثيوقراطية :

«الدولة الدينية أو الدولة الثيوقراطية ، كما ظهرت في الفكر الغربي على مدى التاريخ ، أربعة أشكال نجملها فيما يلي :

ـ **الشكل الأول «إلهية شخص الحاكم»** : يقوم هذا الشكل على أن الحاكم هو الله ذاته ، فالسيادة للحاكم وحده ، وسلطته مطلقة ، وإرادته واجبة التنفيذ .

ـ **الشكل الثاني «إلهية نسب الحاكم»** : حيث يعتقد الحاكم أنه من أصلاب الآلهة ، وأنه يحكم باسمها ، فهو المعبود ومصدر الدين ، وتكون عبادته وطاعته واجبتين على الأمة .

ـ **الشكل الثالث «إلهية حق الحاكم في السلطة السياسية»** : حيث يستمد الحاكم سلطته من الله مباشرة ومن دون تدخل إرادة أخرى ، فهو وحده الذي يصطفي الحاكم ويمنحه السلطة .

---

(١) كتاب الحكومة الإسلامية رؤية تطبيقية معاصرة ، الشيخ عبد المجيد الشاذلي ، إصدار دار الكلمة .

ـ **الشكل الرابع «إلهية اختيار الحاكم»** : ويقوم هذا الشكل على أساس أن الله تعالى لا يباشر بنفسه اختيار شكل السلطة ، ولا شكل الحاكم ، ولكنه يوجه إرادة الناس ، بحيث يقع اختيارهم ورضاهم على من اصطفاه هو .

من الواضح أن الأشكال الأربعة للدولة الدينية «أو الثيوقراطية» مرفوضة ، كلها ، من منظور المسلمين الذين يسمون أنفسهم «أهل السنة والجماعة» ، وهم يشكلون الغالبية العظمى من المسلمين اليوم ، بينما يشكّل المسلمون الذين يسمون أنفسهم «الشيعة» أقل من ١٥٪ من مسلمي عالم اليوم ، أي بمعدل شيعي واحد من كل سبعة مسلمين .

فالشكلان الأول والثاني من الثيوقراطية «أي إلهية شخص الحاكم وإلهية نسب الحاكم» مرفوضان في الإسلام السني ؛ لأن الإسلام يقوم على التوحيد ونفي الإلوهية عما سوى الله تعالى . والشكل الثالث «إلهية حق الحاكم في السلطة السياسية» مرفوض أيضًا ، لكون الإسلام لا يعترف بالسلطة أو الحكومة التي تدّعي أن الله تعالى اختارها لتحكم الناس ، لأن الرسل والأنبياء ، فحسب ، هم الذين يختارهم الله تعالى ، والطريق الشرعي الوحيد في الشريعة الإسلامية لمباشرة السلطة هو الترشيح فالانتخاب الحرّان ، والبيعة الرضائية . وكذلك فإن الشكل الرابع من الثيوقراطية (إلهية اختيار الحاكم) مرفوض ، لأن الجبر والتسيير يتنافيان مع الإسلام ، فلا يصح القول بأن الله تعالى يوجه الحوادث بحيث لا يختار الناس إلا ما اختاره الله تعالى . وبذلك ، فإن الثيوقراطية مرفوضة ، جملة وتفصيلًا ، في الإسلام السني . فالثيوقراطية إذن لا تعنى حكم الشريعة ، بل ولا ترتبط بها [1] .

---

(١) من مقال : السلطة في الإسلام مدنية أم دينية؟ عبد الوهاب محمود المصري من مجلة تحولات .

ويقول الأستاذ محمد قطب في كتابه «مغالطات» :

الحكومة الدينية «الثيوقراطية» :

«الحكومة «الثيوقراطية» التي تترجم باسم «الحكومة الدينية» حكومة سيئة السمعة في التاريخ الأوروبي ، تتمثل فيها كل مظالم الكنيسة الأوروبية وظلماتها ، كما تتمثل فيها جرائمها وحماقاتها من حجر على الفكر ، وتضييق على الناس ، وجمود وكبت وقسوة وعنف ، واتهام للناس بالباطل ، وتصيد الأخطاء أو المخالفات من أجل الإيقاع بالناس تحت طائلة العقاب الذي يصل أحيانا إلى حد إهدار الدم وحرق الناس أحياء بتهمة الكفر والإلحاد .. وتقترن الحكومة «الثيوقراطية» في ذهن الإنسان الأوربي بمحاكم التفتيش ، وما صاحبها من فظائع في القرون الوسطى الأوربية المظلمة .

ويعمد «المثقفون» عندنا إلى وصف الحكومة الإسلامية التي تحكم بما أنزل الله بأنها حكومة دينية أو حكومة ثيوقراطية ليلصقوا بها كل فظائع الحكومة الثيوقراطية الأوربية وشناعاتها ، وينفروا الناس منها ومن الداعين إليها بوصفهم (ظلاميين) يريدون أن يرجعونا إلى القرون الوسطى المظلمة .

وهنا تكمن المغالطة التي يقع فيها أولئك المثقفون بوعي منهم أو بغير وعي .

فلننظر في الأمر في هدوء البحث (العلمي) الموضوعي لنرى هل يصدق الوصف؟ وهل يصح القياس؟ وهل كانت تجربة أوروبا تجربة (إنسانية) بمعنى أنها تاريخية شاملة تشمل كل البشرية ، أو تجربة أوروبية خاصة ، أو بالأحرى مرضا أوربيا خاصا بالتاريخ الأوربي؟

فما هي على وجه التحديد تلك الحكومة الثيوقراطية التي حكمت أوروبا في قرونها الوسطى؟

إنها على وجه التحديد «حكومة رجال الدين» . حكومة تحكم الناس باسم الدين ، وفي الوقت ذاته لا تحكم شريعة الله! .

ولنعد قراءة بيان البابا نقولا الأول :

«إن ابن الله انشأ الكنيسة بأن جعل الرسول بطرس أول رئيس لها . وإن أساقفة روما ورثوا سلطات بطرس من تسلسل مستمر متصل . ولذلك فإن البابا ـ ممثل الله على ظهر الأرض ـ يجب أن تكون له السيادة العليا والسلطان الأعظم على جميع المسيحيين حكاما كانوا أو محكومين» .

وواضح لكل من يستطيع القراءة أنها سيادة البابا وليست سيادة القانون! ليست سيادة الشريعة! .

وهذا فارق أساسي بين الحكومة الثيوقراطية الأوروبية ـ حكومة رجال الدين ـ وبين الحكومة الإسلامية التي تحكم الشريعة .

وإذا كانت أوروبا لا تدرك هذا الفارق ، أو تتجاهله ، بسبب سوء تجربتها الدينية ، التي لم تعرف الدين فيها إلا عن طريق رجال الدين ، ولم تعرف الممارسة الدينية إلا بالطريقة التي علمها إياها رجال الدين ، فنحن المسلمين أحرى أن تكون لنا رؤيتنا خاصة ؛ لأن تجربتنا الدينية مختلفة من أساسها ، سواء من أصولها النظرية أو تطبيقاتها العملية ، بحيث لا يصلح القياس .

فابتداءً ، ليس في الإسلام رجال دين! لا توجد فيه هيئة إكليروس ذات مسوح خاصة ، ولها قداسة ولها سلطان روحي على الناس مستمد من كونها وسيطا بين العبد والرب ، رضاها من رضا الله ، وغضبها من غضب الله ، عن طريقها يتم الغفران للناس ، وعن طريقها يتم الحرمان من الملكوت في الآخرة .. إنما فيه علماء وفقهاء يوقَرون لعلمهم وعلى قدر علمهم ، لكن لا قداسة لهم ولا عصمة لهم كذلك فيما يقولون وفيما يفعلون فكلهم يؤخذ من كلامه ويرد . والعصمة هي

لرسول الله ﷺ، الذي لا ينطق عن الهوى إنما ينطق عن وحي يوحى .

وهؤلاء العلماء والفقهاء هم ـ بعد التحاق رسول الله ﷺ بالرفيق الأعلى ـ هم الذين يُعلمون الناس الدين ، نعم ، ولكنهم لا يبتدعون شيئا من عند أنفسهم ، ولا تقبل منهم بدعة . وإنما مصدر العلم في الإسلام هو كتاب الله وسنة رسوله ، وهو علم يحمل ضوابطه الذاتية : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر:٩] ، فالحفظ من عند الله ، والضوابط من عند الله .

والعلماء بشر ، والبشر يخطئون ويصيبون ، وقد تختلف أفهامهم إزاء النص الواحد ، ولو كان هو النص القرآني أو الحديث النبوي . وقد اختلف العلماء بالفعل في أمور كثيرة . ولكن هناك أمورٌ أساسية لم يختلف عليها أحد ، ولا يمكن أن يختلف عليها في الإسلام أحد ، وهي التي عرّفت بأنها «المعلوم من الدين بالضرورة» . أبرز هذه الأمور قضية الألوهية . قضية التوحيد .

من الإله؟ أإله واحد أم آلهة شتى؟

﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف:٣٩، ٤٠] .

والتوحيد ـ الذي هو أساس الدين ـ له في الإسلام معنى محدد ، ومواصفات محددة حددها منزل الدين وبينها رسوله ﷺ الذي أرسله الله ليبين للناس ما نزل إليهم : ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل:٤٤] .

ويشمل التوحيد أمورًا ثلاثة أساسية :

ـ توحيد الله في الاعتقاد .

ـ توحيد الله في العبادة .

ـ توحيد الله في التشريع .

أي : الاعتقاد الجازم بوحدانية الله وتفرده في ذاته وصفاته وأفعاله ، وربوبيته وألوهيته .

وتوجيه كل شعائر العبادة من صلاة وصيام وزكاة ونسك ودعاء وذبح واستعانة واستغاثة إلى الله وحده دون شريك .

وتحكيم شريعته وحدها دون غيرها من الشرائع .

﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [محمد:١٩] .

﴿ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ﴾ [النساء:٣٦] .

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الجاثية:١٨] .

﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة:٥٠] .

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ [النساء:٦٥] .

والإخلال بأيٍّ من هذه الثلاثة ينقض الإيمان ، ويدخل صاحبه في الشرك ، فقد حكى الله عن المشركين قولهم :

﴿ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴾ [ص:٥] فهذا شرك الاعتقاد .

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ﴾ [النحل:٣٥] .

فهذان هما شرك العبادة وشرك التشريع .

تلك من الأمور التي لا يختلف عليها في الإسلام .

أما التفاصيل الدقيقة في هذه الأمور فقد تخفى على عامة الناس ، وقد يقع الخلاف في بعضها بين العلماء أنفسهم ، فيبحث فيها عن الدليل ، ولا يتبع فيها إلا صاحب الدليل . أما أصول هذه القضايا الثلاث فليست موضع خلاف ـ ولا يجوز أن يكون فيها خلاف ـ لأنها (من المعلوم من الدين بالضرورة) الذي يقع التكليف فيه على الناس جميعا بصرف النظر عن مدى علمهم وفقههم ، ولا يقبل من الناس عذر في مخالفتها ، بعد أن بينها الله للناس في كتابه المنزل وعلى لسان رسوله ﷺ .

والعلمانيون على أي حال لا يجادلون في قضية الاعتقاد ، ولا في قضية العبادة ؛ لأن أوروبا لا تجادل فيهما ، وإن أباحت حرية الإلحاد للملحدين ، وأدخلت ذلك في باب «الحرية الشخصية»! .

إنما تجادل أوروبا في قضية التشريع ، ومن ثم يجادل العلمانيون عندنا في القضية اتباعًا لأوروبا!

وفي وسط الجدل تضيع الحقائق ، ويقال : إن الحكومة الثيوقراطية في أوروبا كانت شرا وفسادا وظلما وظلاما ، وكذلك كل حكومة تحكم (بالدين)!! فلابد إذن من إقصاء الدين عن السياسة ، وإيجاد (حكومة مدنية) لا تحكم بما أنزل الله! .

* * *

نحب أولا أن نشير إلى خطإ منهجي في وضع الإسلام على الموازين الأوروبية البشرية ، وقراءة النتائج بما تشير إليه تلك الموازين! فقد صنعت أوروبا ذلك في دينها ، وهي حرة تفعل في دينها ما تشاء . ولكنها كانت منطقية مع نفسها في ضلالها «وليس معنى كونها منطقية مع نفسها ، أن حكمها في القضية صحيح ، إنما معناه فقط أن هناك ما يفسر وصولها إلى ذلك الحكم ، والتفسير لا يعنى التبرير ، فليس هنالك ما يبرر الخروج على حكم الله مهما تكن الظروف» .

إن أوربا منذ النهضة قد ألّهت الإنسان بدلا من الله ثم وضعت تجربتها الدينية في القرون الوسطى على ميزانها البشرى فقررت أنها كانت ظلما وظلاما لا يجوز العودة إليه فأصابت في جانب وأخطأت في جانب ؛ أصابت في حكمها على التجربة التي خاضتها ومارست الدين من خلالها بأنها كانت خطأ لا يجوز أن يتكرر ، وأخطأت في نسبة الخطأ إلى الدين ذاته فقررت إبعاده عن الهيمنة على الحياة وحصره في أحسن الأحوال في علاقة فردية بين العبد والرب ، محلها القلب ولا شأن لها بواقع الحياة سواء الواقع السياسي أو الاجتماعي أو الاقتصادي أو الفكري أو التشريعي .

أما نحن الذين نؤله الله ولا نؤله الإنسان ، فمن غير المنطقي بالنسبة إلينا أن نضع دين الله على موازين البشر سواء أصابت هذه الموازين أو أخطأت ، وهنا قضية تلتبس فيها الأمور فيما يسمى ميزان العقل! أي عقل؟ وعقل من على وجه التحديد؟ ولكنا نقول هنا إشارة سريعة أليس العقل الأوروبي هو الذي يبيح الربا بكل مظالمه وكل ما يؤدى إليه من غنى فاحش في جانب وفقر فاحش من جانب؟!

أليس العقل الأوروبي هو الذي يبيح الفاحشة بكل ألوانها شاذة وغير شاذة بكل ما تؤدى إليه من انحلال في المجتمع وفساد في الأخلاق؟!

أليس العقل الأوروبي هو الذي يبيح لخمسة من الطغاة ـ التي تسمى نفسها الدول العظمى ـ أن تمتنع عن الرضوخ للحق البين إذا كان على غير هواها ، عن طريق .ill-vit الذي يوقف كل عدل ويحمى كل جبروت؟! والصحيفة لا تنتهي!

إنما المنطقي بالنسبة إلى الذين يؤلهون الله ولا يؤلهون الإنسان أن يكون دين الله عندهم هو الأصل وهو الميزان الذي توزن به تصرفات البشر وأفكارهم ومنهاجهم ورؤاهم ، فيقال عنها : إنها صائبة أو خائبة بمقدار قربها من دين الله أو بعدها عنهم : ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد:٢٥] .

هـذا مـن ناحيـة الاعتقـاد ، أي فـيما يخـص قـضية الألوهيـة : مـن الإلـه؟ آلله أم الإنسان؟ .

وأما من ناحية الواقع فالإسلام لا ينطبق عليه أي ميزان مـن تلـك المـوازين التـي تقـيس بهـا الجاهليـة المعـاصرة أنظمتهـا فـلا هـي حكومـة «ثيولوجيـة» بالمواصـفات الأوروبيـة ولا هـو نظـام «ديمقراطـي» ولا هـو نظـام «دكتـاتوري» ولا هـو نظـام «شمولي» .. ولا أي من هذه الـنظم والإيـديولوجيات ينطبـق انطباقـا صـحيحا عـلى الإسلام . إنما هو الإسلام بمواصفاته الخاصة التي نزل بها مـن عنـد الله ، والتـي قـد تشابهها بعـض الـنظم الأرضـية وقـد تبتعـد عنهـا . فـلا المشابهة تزيـد مـن قـدره ولا المخالفة تضيره أو تنقص من قدره . ويظل هو كـما هـو ، بـصورته الربانيـة بمقاييسه الخاصة ، وتقاس إليه نظم الأرض كلها لمن كانت عنده هواية القياس ليعـرف مـدى قربها أو بعدها عن الإسلام!

* * *

سـيقول العلمانيـون : أي إسـلام تقـصدون؟ الإسـلام الكلاسـيكي؟ أو إسـلام العصور الوسطى؟ أم الإسلام المعاصر؟ وأي إسلام معـاصر؟ الإسـلام الـسلفي أم الإسلام الليبرالي! «ونضيف نحن من عنـدنا : أو الإسـلام الأمريكـاني ، الـذي يـراد تعميمه في المنطقة؟!» .

ونقول نحن : إن هذه التقسيمات مرفوضة ابتداء .. فهي تقـسيمات المستـشرقين ، التي يبثونها في كتبهم لتمييع الإسلام ، والإيهـام بأنـه لـيس شـيئا واحـدا ثابتـا يمكـن التعرف عليه من مواصفاته الخاصة ، وإنما هو صور وأشكال متباينة ، وكلها إسلام! ويبلـغ التـبجح بأحـد المستـشرقين المعـاصرين (ولفـرد كـانتول سـميث) أن يـسمي العلمانية الصارخة المحاربة لكل معنى إسلامي في تركيا أتاتورك بأنها صورة جديـدة

من صور الإسلام!! كما أن هذا التقسيم : كلاسيكي ووسيط وحديث ومعاصر وهو تقسيم أوروبا لتاريخها ، قد يكون منطقيا مع ذلك التاريخ . أما تلبيسه على تاريخ الإسلام فإذا صنعه المستشرقون لغايات في نفوسهم فلا يجوز لنا نحن استخدام مصطلحاتهم ولا تقسيماتهم ، ونحن نملك مصطلحاتنا الخاصة وتقسيماتنا الخاصة التي استخدمها المؤرخون المسلمون : عصر صدر الإسلام ـ العهد الأموي ـ العهد العباسي ـ عصر المماليك ـ الدولة العثمانية .. وأهمية هذا التقسيم هي تقرير استمرارية هذا الدين وتاريخه في عصور مختلفة ، وأنه تاريخ الأمة الإسلامية الواحدة المستمرة ، وذلك في مقابل التمييع والتلويع الذي يقصده المستشرقون! .

ولا شك أن هناك فروقا في مظاهر المجتمع الإسلامي حدثت من عصر إلى عصر . وهذا الاختلاف في مظاهر المجتمع أمر واقع من جهة ، ومحسوب حسابه في النظام الإسلامي ذاته من جهة أخرى .

فالله سبحانه وتعالى ـ منزل هذا الدين ـ يعلم أن حياة الإنسان تتغير باستمرار ، عن طريق أدوات التغيير التي وهبها الله للإنسان سواء في ذات نفسه أو الكون المادي الذي يتعامل معه : ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل:٧٨] ، هذه هي الأدوات الحسية والمعنوية .

﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ [الجاثية:١٣] وهذا هو الكون المسخر للإنسان ، والإنسان يحقق التسخير الرباني باستخدام الأدوات التي وهبها له الله .

وينتج عن هذا التفاعل بين الإنسان والكون حدوث أحوال جديدة في حياة الإنسان على الدوام . والدين المنزل من عند الله ، المطلوب العمل به من مبعث رسول الله ﷺ إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها لم يقصد به منزله سبحانه وتعالى

تجميد الحياة على صورة واحدة لا تتجدد ولا تنمو ولا ترتقي .. وإنما على العكس من ذلك كلف الإنسان بعمارة الأرض .

﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود:٦١] ، والعمارة تقتضي استخدام الأدوات والخامات ، وينتج من استخدام الأدوات والخامات جديد على الدوام ، عن طريق العلم واستخدام هذا العلم في مزيد من تحقيق التسخير الرباني لطاقات السماوات والأرض .

ولكن هذا الجديد المتجدد لا يغير أصول الحياة! لا يغير الفطرة التي فطر الناس عليها : ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم:٣٠] .

*****

تأسيس الدولة المدنية الأولى بالمدينة

تأسيس الدولة المدنية الأولى بالمدينة

إقامة دولة للإسلام كانت خطوة ضرورية لتثبيت أركان هذا الإسلام وهي جزء منه ، ومنذ بدأت الرسالة والصورة واضحة في خطوات الرسول ﷺ لإقامة الدولة وكانت هذه الخطوات كالتالي :

* بعد لقاء جبريل عليه السلام عاد الرسول ﷺ إلى زوجته خديجة < ودعاها إلى الإسلام .

* اختيار عدد محدد ممن وثق فيهم ودعاهم إلى الإسلام وأذن لهم بالدعوة إلى الإسلام مثل : «أبو بكر ، وعثمان ، وعلي» .

* بدأ التربية الجماعية لهذا النفر في مجموعات في دار الأرقم .

* أذن لعمر وحمزة في الخروج على رأس صفين لإعلان ميلاد الدعوة الجديدة .

* كون بيوتًا مسلمة ممن أسلم من النساء والرجال .

* بدأ التربية الميدانية والحركة ومحاولة نشر الإسلام خارج مكة ، فكانت الهجرة إلى الحبشة ، وهجرته ﷺ إلى الطائف لتحقيق ذلك .

* بدأ في تكوين نواة له من القبائل بلقاء وفود منهم في مواسم الحج ودعوتهم إلى الإسلام .

* بدأ نواة الدولة الجديد بلقاء اثنى عشر رجلًا من المدينة (بيعة العقبة الأولى) .

* بدأ أول خطوة لتأسيس الدولة بلقاء **ثلاثة وسبعين رجلًا وامرأتين** من أهل المدينة قبل الهجرة بعام (بيعة العقبة الثانية) .

* استكمل تأسيس أركان وأسس دولة جديدة تقوم على الانتخاب نموذج . والشورى سلوك وعبادة .

* طلب الرسول ﷺ من وفد المدينة أن يختاروا من بينهم اثني عشر نقيبًا وأسس بذلك **أول مؤسسة شورية في الدولة القادمة** .

«إذا كانت الدولة الحديثة تكونت بعقد افتراضي اجتماعي فإن رسول الله ﷺ ولأول مرة يؤسس دولة بعقد حقيقي» :

الطرف الأول : الحاكم الجديد « الرسول ﷺ » .

الطرف الثاني : المحكومين «من المسلمين في المدينة» .

الموضوع : تأسيس دولة في المدينة دستورها الإسلام تقوم على الشورى .

وكون فيها عددًا من المؤسسات :

ـ **مؤسسة الأنصار** «يمثلها النقباء» .

ـ **مؤسسة المهاجرين** الأولين «مثلها بعد ذلك العشرة المبشرون» .

ـ **مجلس السبعين** [1] .

* وبعد عام انتقل الرسول ﷺ إلى المدينة لإقامة الدولة الجديدة وكانت معه مؤسسة المهاجرين الأولين واستقبلته مؤسسة الأنصار ومثلها النقباء وكانت المؤسسة الثالثة التي تكونت في المدينة هي مؤسسة السبعين «مجلس السبعين» وهذا المجلس «كما ذكر أستاذنا الدكتور محمد عمارة في : «كتابه المؤسسة والمؤسسات في الحضارة الإسلامية» كان يمثل مجلس الشورى وكان يجتمع في المسجد النبوي في مكان محدد وأوقات محددة وهو يتخيله كالبرلمان المعاصر واستند في توثيق هذا المجلس على ما ورد في كتاب «السيادة العربية والشيعة والإسرائيليات في عهد بني أمية لمؤلفه فان فلوتن» كذلك الإشارات الواردة في « كتاب الدرر في اختصار المغازي والسير لابن عبد البر » أنه كان يذكر شخصًا ما ويقول عنه : إنه كان عضوًا

(١) د. محمد عمارة ، كتاب المؤسسة والمؤسسات في الحضارة الإسلامية .

في مجلس السبعين ويرى أن هذا المجلس غاب نتيجة الاستبداد الذي ظهر بعد ذلك .

* ولم يتبق ذكر أحد من هذا المجلس إلا العشرة المبشرون بالجنة وهؤلاء هم الذين أطلق عليهم الخليفة الأول أبو بكر مؤسسة الأمراء ، وسمى النقباء الاثنى عشر بمؤسسة الوزراء عندما وقف في السقيفة وهو يخاطب الأنصار فقال : منا الأمراء ومنكم الوزراء .

* واللافت أن هاتين المؤسستين هما اللتان اختارا الخليفة الأول وكذلك باقي الخلفاء الراشدين .

* وهكذا بدأ رسول الله ﷺ يؤسس مؤسسات دولته الجديدة وقام بعد ذلك بوضع دستور لهذه الدولة ينظم العلاقة بين المسلمين «مهاجرين وأنصار» ، وبين الأقليات الأخرى «نصارى ، يهود مقيمين بالمدينة ، وبعض القبائل» .

فوضع دستور ووثيقة من سبعة وأربعين مادة حدد فيها العلاقة بين القبائل والطوائف على أساس المواطنة ليبني مجتمعًا دستوريًا يعرف كُلٌّ حقوقه وما عليه من واجبات .

*** وهذا يعتبر لأول مرة تؤسس دولة بعقد واقعي ودستور حقيقي محدد ومكتوب .**

وهذا هو نص الوثيقة أو الدستور :

*****

نص الوثيقة

بسم الله الرحمن الرحيم

١ـ هذا كتاب من محمد ﷺ بين المؤمنين من قريش وأهل يثرب ، ومن تبعهم ، فلحق بهم ، وجاهد معهم .

٢ـ أنهم أمة واحدة من دون الناس .

٣ـ المهاجرون من قريش على ربعتهم يتعاقلون بينهم ، وهم يفدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

٤ـ وبنو عوف على ربعتهم معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

٥ـ وبنو الحارث على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

٦ـ وبنو ساعدة على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

٧ـ وبنو جشم على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

٨ ـ وبنو النجار على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

٩ـ وبنو عمرو بن عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

١٠ـ وبنو النبيت على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدي

عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

١١ـ وبنو الأوس على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

١٢ـ أ ـ وأن المؤمنين لا يتركون مفرحًا بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل .

ب ـ وألَّا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه .

١٣ـ وأن المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى دسيعة ظلم أو إثمًا أو عدوانًا أو فسادًا بين المؤمنين ، وأن أيديهم عليه جميعًا ولو كان ولد أحدهم .

١٤ـ ولا يقتل مؤمن مؤمنًا في كافر ، ولا ينصر كافرًا على مؤمن .

١٥ـ وأن ذمة الله واحدة يجير عليهم أدناهم ، وأن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس .

١٦ـ وأنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناحر عليهم .

١٧ـ وأن سلم المؤمنين واحدةٌ لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم .

١٨ـ وأن كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضًا .

١٩ـ وأن المؤمنين يبيء بعضهم عن بعض بما نال دماءهم في سبيل الله .

٢٠ـ أ ـ وأن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه .

ب ـ وأنه لا يجير مشرك مالًا لقريش ولا نفسًا ، ولا يحول دونه على مؤمن .

٢١ـ وأنه من اعتبط مؤمنًا قتلًا عن بينة فإنه قود به إلا أن يرضى ولي المقتول ، وأن المؤمنين عليه كافة ولا يحلّ لهم إلا قيام عليه .

٢٢ـ وأنه لا يحل لمؤمن أقر بما في هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثًا أو يؤويه ، وأنه من نصره أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل .

٢٣ـ وأنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مردّه إلى الله وإلى محمد .

٢٤ـ وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين .

٢٥ـ وأن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين لليهود دينهم وللمسلمين دينهم ومواليهم وأنفسهم إلا من ظلم أو أثم فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته .

٢٦ـ وأن ليهود بني النجار مثل ما ليهود بني عوف .

٢٧ـ وأن ليهود بني الحارث مثل ما ليهود بني عوف .

٢٨ـ وأن ليهود بني ساعدة مثل ما ليهود بني عوف .

٢٩ـ وأن ليهود بني جشم مثل ما ليهود بني عوف .

٣٠ـ وأن ليهود بني الأوس مثل ما ليهود بني عوف .

٣١ـ وأن ليهود بني ثعلبة مثل ما ليهود بني عوف ، إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته .

٣٢ـ وأن جفنة بطن من ثعلبة كأنفسهم .

٣٣ـ وأن لبني لشطيبة مثل ما ليهود بني عوف ، وأن البر دون الإثم .

٣٤ـ وأن موالي ثعلبة كأنفسهم .

٣٥ـ وأن بطانة يهود كأنفسهم .

٣٦ـ أ ـ وأنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد .

ب ـ وأنه لا ينحجز على ثأر جرحٍ ، وأنه من فتك فبنفسه وأهل بيته إلا من أسلم

وأن الله على أبر هذا .

٣٧ـ أ ـ وأن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم ، وأن بينهم النصر على من حارب أهله هذه الصحيفة ، وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم .

ب ـ وأنه لا يأثم امرئ بحليفه ، وأن النصر للمظلوم .

٣٨ ـ وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين .

٣٩ـ وأن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة .

٤٠ـ وأن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم .

٤١ـ وأنه لا تجار حرمةٌ إلا بإذن أهلها .

٤٢ـ وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فسادًا فإنَّ مردّه إلى الله وإلى محمد رسول الله ﷺ ، وأن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبرّه .

٤٣ـ وأنه لا تجار قريش ولا من نصرها .

٤٤ـ وأن بينهم النصر على من دهم يثرب .

٤٥ـ أ ـ وإذا دعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه فإنهم يصالحونه ويلبسونه وأنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فإنه لهم على المؤمنين إلا من حارب الدين .

ب ـ على كل أناس حصتهم من جانبهم الذي قبلهم .

٤٦ـ وأن يهود الأوس مواليهم وأنفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البر المحض من أهل الصحيفة ، وأن البر دون الإثم ، لا يكسب كاسب إلا على نفسه وأن الله على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبره .

٤٧ـ وأنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم ، وأنه من خرج آمن ومن قعد آمن بالمدينة إلا من ظلم وأثم ، وأن الله جارٌ لمن بر واتقى ، ومحمد رسول الله ﷺ .

هكذا تأسست أول دولة مدنية في هذا العصر تقوم على المؤسسات :

ـ مؤسسة المهاجرين الأولين «الأمراء» .

ـ مؤسسة النقباء «الأنصار» «الوزراء» .

ـ مجلس السبعين «مجلس الشورى» .

* تستخدم الشورى آلية لاتخاذ القرار «مع كونها عبادة» .

الخلافة فيها بالبيعة والاختيار «لم يختار الرسول ﷺ خليفة له» .

ـ **القاعدة التي تحميها** : «أطيعوني ما أطعت الله فيكم فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم» .

ـ واستكمل الخلفاء الراشدون المسيرة .

* ففي السقيفة بدأ عمر بالبيعة لأبي بكر وتلاه أبو عبيدة وهما من العشرة ، ثم جمعت البيعة العامة وذلك بعد حوار طويل بين المهاجرين والأنصار وقال لهم «للأنصار» أبو بكر : « منا الأمراء ومنكم الوزراء » وحسم الأمر تقدم أعضاء مؤسسة المهاجرين «عمر وأبو عبيدة» وهم من العشرة المبشرون بالجنة في بيعة أبي بكر ثم بعد ذلك تمت البيعة العامة في المسجد لعموم المسلمين .

ـ وقد خطب أبو بكر خطبة عظيمة بعد البيعة العامة في المسجد وأسس للقواعد الحاكمة في حكمه هذا نص الخطبة :

أما بعد ، أيها الناس ، فإني قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينوني ، وإن أسأت فقوموني ، الصدق أمانة والكذب خيانة ، والضعيف فيكم قوي عندي حتى أريح [1] عليه حقه إن شاء الله ، والقوي فيكم ضعيف عندي حتى

(١) أي : أرد عليه حقه .

أخذ الحق منه إن شاء الله ، لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله ، فإنه لا يدعه قوم إلا ضربهم الله بالذل ولا تشيع الفاحشة في قوم قط إلا عمهم الله بالبلاء ، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله ، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم .

أيها الناس ، إنما أنا مثلكم ، وإني لا أدري لعلكم ستكلفونني ما كان رسول الله ﷺ يطيق؟ إن الله اصطفى محمدًا على العالمين ، وعصمه من الآفات ، فإنما أنا متبع ولست بمبتدع ؛ فإن استقمت فاتبعوني ، وإن زغت فقوموني ؛ وإن رسول الله ﷺ قبض ، وليس أحد من هذه الأمة يطلبه بمظلمة ، ضربة سوط فما دونها ؛ ألا وإن لي شيطانًا يعتريني ؛ فإذا أتاني فاجتنبوني ؛ لا أؤثر في أشعاركم وأبشاركم [١] ؛ وأنتم تغدون وتروحون في أجل قد غيب عنكم علمه ؛ فإن استطعتم ألا يمضى هذا الأجل إلا وأنتم في عمل صالح فافعلوا ؛ ولن تستطيعوا ذلك إلا بالله ، فسابقوا في مهل آجالكم من قبل أن تسلمكم آجالكم إلى انقطاع الأعمال ؛ فإن قومًا نسوا آجالهم ، وجعلوا أعمالهم لغيرهم ؛ فإياكم أن تكونوا أمثالهم . الجد الجد ! والوحى الوحى [٢] ، والنجاء النجاء ، فإن وراءكم طالبا حثيثًا ، أجلًا مره سريع . احذروا الموت ، واعتبروا بالآباء والأبناء والإخوان ، ولا تغبطوا الأحياء إلا بما تغبطون به الأموات .

إن الله لا يقبل من الأعمال إلا ما أريد به وجهه ؛ فأريدوا الله بأعمالكم ، واعلموا أن ما أخلصتم لله من أعمالكم فطاعة أتيتموها ، وحَطٌّ ظفرتم به ، وضرائب أديتموها ، وسلف قدمتموه من أيام فانية لأخرى باقية ؛ لحين فقركم وحاجتكم ، اعتبروا عباد الله بمن مات منكم ، وتفكروا فيمن كان قبلكم . أين كانوا أمس ، وأين هم اليوم ؟! أين الجبارون الذين كان لهم ذكر القتال والغلبة في مواطن

---

(١) الأبشار مفردها بشرة وهي الجلد ، والأشعار : الشعر الذي ينبت من مسام البشرة .
(٢) الوحي : الإسراع .

الحروب ؟! قد تضعضع بهم الدهر ، وصاروا رميمًا ؛ قد تركت عليهم القالات ؛ الخبيثات للخبيثين ، والخبيثون للخبيثات ، وأين الملوك الذين أثاروا الأرض وعمروها ؟! قد بعدوا ونسى ذكرهم ، وصاروا كلا شيء . ألا إن الله قد أبقى عليهم التبعات ، وقطع عنهم الشهوات ، ومضوا والأعمال أعمالهم ، والدنيا دنيا غيرهم ، وبقينا خلفًا بعدهم ؛ فإن نحن اعتبرنا بهم نجونا ؛ وإن اغتررنا كنا مثلهم ! أين الوضاء الحسنة وجوههم ، المعجبون بشبابهم ! صاروا ترابًا ، وصار ما فرطوا فيه حسرة عليهم .

أين الذين بنوا المدائن وحصنوها بالحوائط ، وجعلوا فيها الأعاجيب ؟! قد تركوها لمن خلفهم ؛ فتلك مساكنهم خاوية ، وهم في ظلمات القبور ، هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزًا ؟! [١] .

أين من تعرفون من أبنائكم وإخوانكم ؟! قد انتهت بهم آجالهم ، فوردوا على ما قدموا ، فحلوا عليه وأقاموا للشقوة والسعادة فيما بعد الموت . ألا إلا الله لا شريك له ، ليس بينه وبين أحد من خلقه سبب يعطيه به خيرًا ، ولا يصرف عنه به سوءًا ، إلا بطاعته واتباع أمره . واعلموا أنكم عبيد مدينون ، وإن ما عنده لا يدرك إلا بطاعته .

ألا وإنه لا خير بخير بعده النار ، ولا شر بشر بعده الجنة ، والله سبحانه وتعالى أعلم [٢] .

وعندما اقتربت الوفاة من أبي بكر جمع العشرة المبشرين بالجنة ، أهل الحل والعقد ، واتفقوا على عمر ، وكتبوا كتابًا بذلك بايعوه فيه ثم بعد وفاة أبي بكر جمعت لعمر البيعة العامة .

---

(١) الركز : الصوت الخفي .

(٢) النويري «نهاية الأرب في فنون الأدب» ، ج١٩ ، (ص٤٢ـ ٤٥) ، طبعة القاهرة .

ـ وأسس عمر الدواوين والمؤسسات التي تسير عمل الدولة وخاصة بعد اتساع الدولة وعين الأمراء ونورد هنا نموذجًا لما كان يقوم به عمر وتأسيسه لمرافق الدولة .

فكتب إلى واليه عبد الله بن قيس «أبي موسى الأشعري» كتابًا إليه خصصه للقضاء نموذجًا ، وتكلم عن تنفيذ الأحكام والبحث عن الحق ؛ لأنه هو المعيار وضوابط الصلح بين الناس والمساواة بين المتخاصمين وأن المؤمنين جميعًا سواسية وهذا نص الكتاب :

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبد الله عمر ، أمير المؤمنين ، إلى عبد الله بن قيس[١] .

سلام عليك ، أما بعد ، فإن القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة ، فافهم إذا أدلي إليك ، فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له .

آس[٢] بين الناس في مجلسك ووجهك ، حتى لا يطمع شريف في حيفك[٣] ، ولا ييئس ضعيف من عدلك ، البينة على من ادعى ، واليمين على من أنكر ، والصلح جائز بين الناس ، إلا صلحًا أحل حرامًا أو حرم حلالًا ، ولا يمنعنك قضاء قضيته بالأمس فراجعت فيه نفسك وهديت لرشدك أن ترجع إلى الحق ، فإن الحق لا يبطله شيء ، واعلم أن مراجعة الحق خير من التمادي في الباطل ، الفهم الفهم فيما يتلجلج في صدرك مما ليس فيه قرآن ولا سنة ، واعرف الأشباه والأمثال ، ثم قس الأمور بعد ذلك ، ثم اعمد لأحبها إلى الله وأشبهها بالحق فيما ترى .

اجعل لمن ادعى حقًّا غائبًا أمدًا ينتهي إليه ، فإن أحضر بينة أخذ بحقه ، وإلا استحللت عليه القضاء ، والمسلمون عدول في الشهادة ، إلا مجلودًا في حد ، أو مجربًا

---

(١) أي : أبو موسى الأشعري .
(٢) أي : سوِّ .
(٣) الحيف : الظلم .

عليه شهادة زور ، أو ظنينًا في ولاء أو قرابة ، إن الله تولى منكم السرائر ، ودرأ عنكم بالبينات .

وإياك والقلق والضجر والتأذي بالخصوم في مواطن الحق التي يوجب الله بها الأجر ويحسن الذخر ، فإنه من صلحت سريرته فيما بينه وبين الله ، أصلح الله ما بينه وبين الناس ، ومن تزين للدنيا بغير ما يعلم الله من شنأه [١] الله ، والسلام [٢] .

وهكذا استمر عمر بن الخطاب يؤسس لاستكمال بناء الدولة ويمارس الحكم بالأسس التي وضعها رسول الله ﷺ فنجده يمارس الشورى في كل أمر ومثال لذلك ما فعله عندما فتحت فارس قال عمر : نعرف اليهود والنصارى لكن هؤلاء مجوس يعبدون النار ، فعرض الأمر على مجلس السبعين فوثب عبد الرحمن بن عوف وقال : أشهد أني سمعت رسول الله ﷺ يقول : «**استنوا بهم سنة أهل الكتاب**» [٣] .

وعندما فتحت الأرض في العراق والشام ومصر طلب عدد من الصحابة في الجيش الفاتح توزيع الأرض عليهم كما وزع الرسول ﷺ أرض خيبر ، وصارت مشكلة وبدؤوا يهاجمون سيدنا عمر فعرض الأمر على مؤسسة المهاجرين الأولين فاختلفوا فاختار عشرة خمسة من الأوس ، وخمسة من الخزرج ، وهذا نص الحوار للتحكيم في الأمر :

* عندما جمع عمر بن الخطاب المسلمين للمشورة في قسمة أرض العراق التي فتحت عنوة ، ثم خاطبهم قائلًا : «إني لم أزعجكم إلا لتشتركوا في أمانتي ، فيما حملت من أموركم وإني واحد كأحدكم ، وأنتم اليوم تقرون بالحق ، خالفني من خالفني ووافقني من وافقني ، ولست أريد أن تتبعوا هذا الذي هواي فيه ، معكم من

---

(١) أي : كرهه وعاداه .

(٢) مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة ، (ص٣١٦، ٣١٧) .

(٣) البيهقي ، مالك .

الله كتاب ينطق بالحق ، فوالله لئن كنت نطقت بأمر أريده ، ما أريد به إلا الحق» .

ولما قاطعه بعض الصحابة وأرادوا أن تقسم الأرض رد عليهم قائلًا : فكيف بمن يأتي من المسلمين فيجدون الأرض قد قسمت وورثت عن الآباء وحيزت ؟ ما هذا برأي .

فيتساءل عبد الرحمن بن عوف : فما الرأي ؟ ما الأرض إلا مما أفاء الله عليهم .

ويطالب بلال وعمرو بن العاص والزبير بن العوام بالقسمة .

ويطالب علي بن أبي طالب ، وعثمان ، ومعاذ بن جبل ، وطلحة بن عبيد الله ، وأبو عبيدة ، وعبد الله بن عمر بألا تقسم ، وأن تبقى للمسلمين جميعًا ، ويجمع الأنصار كلهم على ألا تقسم ، ويحسم عمر بن الخطاب الخلاف وقد هداه الله إلى الدليل من القرآن ـ كما ورد في عدة مصادر بعدة صيغ ـ فيقول : قد بان لي الأمر وقد وجدت حجة من كتاب الله ، قال تعالى : ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ﴾ [الحشر:٧] ، ثم قال : ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحشر:٨] ، ثم لم يرض حتى خلط بهم غيرهم فقال : ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر:٩] ، ثم لم يرض حتى خلط بهم غيرهم فقال : ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [الحشر:١٠] ، فكانت هذه لمن جاء بعدهم إلى يوم القيامة ؛ فقد صار هذا الفيء بين هؤلاء جميعًا ، فكيف نقسمه لهؤلاء وندع من تخلف بعدهم بغير قسم ، استوعبت هذه الآيات الناس كلهم ولم يبق أحد من المسلمين إلا وله فيها حق ، قد عنت الخلق حتى

الراعي بكداء ، لئن عشت ليأتين الراعي وهو بسرو حمير نصيبه منها لم يعرق جبينه.

* وعندما طعن عمر بن الخطاب ﷺ قال الناس : الشورى في الستة «الستة هم من تبقى من العشرة بعد وفاة أربعة منهم» .

حتى أن عمر عندما جعل عبد الله بن عمر معهم في المؤسسة قال : له رأي وليس له صوت [١] لأنه ليس عضوًا في المؤسسة ، وعندما عهد إلى عبد الرحمن بن عوف مكث ثلاثة أيام ليلًا ونهار ولم يترك أحدًا في المدينة كبيرًا أو صغيرًا رجلًا أو امرأة حرًا أو عبدًا إلا سأله : ترى من الخليفة بعد عمر ؟ فاختاروا عثمان ﷺ .

* وعندما استشهد عثمان جاء الثوار إلى علي ليبايعوه بالخلافة فقال لهم : هذا ليس لكم ، هذا للمهاجرين الأولين ، ولما كان العدد قليلًا ففكر في أن يضم لهم بقية البدريين .

لكن أحداث الفتنة عاجلت الجميع ، ومع أن إمارة علي بن أبي طالب ﷺ للمؤمنين كانت ثورة على التغييرات التي سادت في أواخر عهد سيدنا عثمان ، إلا أنه كان يوصي واليه الأشتر النخعي بالعمل على تثبيت أركان الدولة في رسالة مطولة قال فيها :

اعلم يا مالك ، أني قد وجهتك إلى بلاد قد جرت عليها دول قبلك من عدل وجور ، وأن الناس ينظرون في أمورك في مثل ما كنت تنظر فيه من أمور الولاة قبلك ، ويقولون فيك ما كنت تقوله فيهم ، وإنما يُستدل على الصالحين بما يجري الله لهم على ألسنة عباده .

أشعر قلبك الرحمة للرعية ، والمحبة لهم ، واللطف بهم ، ولا تكوننَّ سبُعًا ضاريًا تغتنم أكلهم ، فإنهم صنفان : إما أخ لك في الدين ، وإما نظير لك في الخلق .

---

(١) كتاب المؤسسة مرجع سابق.

أنصف الناس من نفسك من خاصة أهلك ، ومن لك فيه هوى من رعيتك ، فإنك إلا تفعل تظلم ، وليس شيء أدعى إلى تغيير نعمة الله وتعجيل نقمته من إقامة على ظلمٍ ، فإن الله يسمع دعوة المضطهدين ، وهو للظالمين بالمرصاد .

وليكن أحب الأمور إليك : أوسطها في الحق ، وأعمها في العدل ، وأجمعها لرضا الرعية ، فإن سخط العامة يجحف برضا الخاصة [١] ، وإن سخط الخاصة يغتفر مع رضا العامة .

وليس أحد من الرعية أثقل على الوالي مؤونة في الرخاء ـ وأقل معونة له في البلاء وأكره للإنصاف ، وأسأل بالإلحاف [٢] ، وأقل شكرًا عند العطاء ، وأبطأ عذرًا عند المنع ، وأضعف صبرًا عند ملمات الدهر ـ من أهل الخاصة ، وإنما عماد الدين ـ وجماع المسلمين والعدة للأعداء ـ العامة من الأمة ، فليكن صغوك [٣] لهم ، وميلك معهم .

وليكن أبعد رعيتك منك ، وأشنؤهم عندك ، أطلبهم لمعايب الناس ، فإن في الناس عيوبًا ، الوالي أحق من سترها ، فلا تكشفنَّ عما غاب عنك منها ، فإنما عليك تطهير ما ظهر لك ، والله يحكم على ما غاب عنك .

إن شرَّ وزرائك من كان للأشرار قبلك وزيرًا ، ومن شركهم في الآثام فلا يكوننَّ لك بطانة ، فإنهم أعوان الأثمة ، وإخوان الظلمة ، وأنت واجد منهم [٤] ، خير الخلف ، ممن له مثل آرائهم ونفاذهم ، وليس عليه آصارهم وأوزارهم [٥] ، ممن لم يعاون ظالمًا على ظلمه ، ولا آثمًا على إثمه ، أولئك أخف عليك مؤونة ، وأحسن لك

---

(١) أي : يذهب برضا الخاصة ويضيعه .

(٢) أي : بالإلحاح والشدة في السؤال .

(٣) أي : استماعك واستشارتك .

(٤) أي : واجد بدلهم .

(٥) الآصار : مفردها إصر ، بكسر الهمزة ، والأوزار ، مفردها وزر بكسر الواو ، معناهما : الذنوب والآثام .

معونة ، وأحنى عليك عطفًا ، وأقل لغيرك إلفًا [١] .

ولا تُنقضْ سنّة صالحة عَمِل بها صدور هذه الأُمّة ، واجتمعت بها الأُلفة ، وصَلُحت عليها الرعية ، ولا تُحدثنّ سنّةً تضر بشيء مما مضى من تلك السّنن ، فيكون الأجر لمن سنّها ، والوزر عليك بما نقضت منها ، وأكثر مدارسة العلماء ، ومناقشة الحكماء في تثبيت ما صلح عليه أمر بلادك ، وإقامة ما استقام به الناس قبلك .

واعلم أنّ الرّعية طبقات لا يصلح بعضًا إلا ببعض ، ولا غنى ببعضها عن بعض فمنها : جنود الله ، ومنها كُتّاب العامة والخاصة ، ومنها قضاة العدل ، ومنها عُمّال الإنصاف والرفق ، ومنها أهل الجزية والخراج من أهل الذّمّة ومُسلمة الناس ، ومنها التجار وأهل الصناعات ، ومنها طبقة السفلى من ذوي الحاجة والمسكنة ، وكل قد سمّى الله سهمه ، ووضع على حدّ فريضته في كتابه أو سنّة نبيه ﷺ ، وعهدٌ عندنا محفوظ .

فالجنود بإذن الله حصون الرّعية ، وزين الولاة ، وعزّ الدين ، وسبيل الأمن ، وليس تقوم الرّعية إلا بهم ، ثم لا قوام للجنود إلاّ بما يُخرج الله لهم من الخراج ، الذي يقوون به على جهاد عدوهم ، ويعتمدون عليه فيما يصلحهم ، ويكون من وراء حاجاتهم .

ثمّ لا بقاء لهذين الصّنفين إلاّ بالصّنف الثالث من القضاة والعمّال [٢] والكُتّاب ، لما يُحكِمون من المعاقد [٣] ، ويَجمعون من المنافع ، ويُؤتمنون عليه من خواصّ الأمور وعوامها ، ولا قوام لهم جميعًا إلا بالتجّار ، وذوي الصناعات فيما يجمعون من مرافقهم ، ويقيمون من أسواقهم ، ويكفونهم من الترفّق بأيديهم مما لا يبلغه رفق غيرهم .

---

(١) أي : ألفة ومحبة .

(٢) العمال : هم ولاة الأقاليم .

(٣) ما به تنعقد الشؤون المختلفة فتترابط وتسير كجسد حي متمثل في الحياة العامة للمجتمع .

ثم الطبقة السفلى من أهل الحاجة والمسكنة الذين يحق رفدهم [١] ومعونتهم .

وفي الله لكل سعة ، ولكل على الوالي حق بقدر ما يصلحه ، فولِّ من جنودك أنصحهم في نفسك لله ولرسوله ولإمامك .

واردد إلى الله ورسوله ما يضلعك من الخطوب ، ويشتبه عليك من الأمور ، فقد قال الله تعالى لقوم أحب إرشادهم : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾ [النساء:٥٩] ، فالرد إلى الله : الأخذ بمحكم كتابه ، والرد إلى الرسول : الأخذ بسنته الجامعة غير المفرقة .

ثم اختر للحكم بين الناس أفضل رعيتك في نفسك ، ثم أكثر تعاهد قضائه .

ثم انظر في أمور عمالك ، فاستعملهم اختبارًا ، ولا تولهم محاباة وأثرة ، ثم اسبغ عليهم الأرزاق ، فإن ذلك قوة لهم على استصلاح أنفسهم ، وغني لهم عن تناول ما تحت أيديهم ، وحجة عليهم إن خالفوا أمرك أو ثلموا أمانتك [٢] .

وتفقد أمر الخراج بما يصلح أهله ، فإن صلاحه وصلاحهم صلاحًا لمن سواهم ، ولا صلاح لمن سواهم إلا بهم ؛ لأن الناس كلهم عيال على الخراج وأهله ، وليكن نظرك في عمارة الأرض أبلغ من نظرك في استجلاب الخراج ؛ لأن ذلك لا يدرك إلا بالعمارة ، ومن طلب الخراج بغير عمارة أخرب البلاد ، وأهلك العباد ، ولم يستقم أمره إلا قليلًا ، فإن شكوا ثقلًا أو علة أو انقطاع شرب [٣] أو بالة [٤] أو إحالة [٥] أرض اغتمرها غرق ، أو أجحف بها عطش ، خفف عنهم بما ترجو أن يصلح

---

(١) أي : مساعدتهم .

(٢) أي : نقصوا في أدائها أو خانوها .

(٣) الشرب بكسر الشين : ماء الري فيما يروى بالأنهار .

(٤) البالة : ما يبل الأرض من مطر فيما يروى بالأمطار .

(٥) أي : تغيرها من الصلاح إلى الفساد .

أمرهم .

ولا يثقلن عليك شيء خففت به المؤونة عنهم فإنه ذخر يعودون به عليك في عمارة بلادك ، وتزيين ولايتك ، مع استجلابك حسن ثنائهم ، وتبجحك [١] باستفاضة العدل فيهم ، معتمدًا فضل قوتهم بما ذخرت عندهم من إجمامك لهم ، والثقة منهم بما عودتهم من عدلك عليهم في رفقك بهم ، فربما حدث من الأمور ما إذا عولت فيه عليهم من بعد احتملوه طيبة أنفسهم به ، فإن العمران محتمل ما حملته ، وإنما يؤتى خراب الأرض من إعواز أهلها ، وإنما يعوز أهلها لإشراف أنفس الولاة على الجميع ، وسوء ظنهم بالبقاء ، وقلة انتفاعهم بالعبر !

ثم انظر في حال كتابك فولِّ على أمورك خيرهم ، ثم لا يكون اختيارك إياهم على فراستك واستنامتك [٢] وحسن الظن منك ، فإن الرجال يتعرفون لفراسات الولاة بتصنعهم وحسن حديثهم ، وليس وراء ذلك من النصيحة والأمانة شيء ، ولكن اختبرهم بما ولوا للصالحين قبلك ، فاعمد لأحسنهم كان في العامة أثرًا ، وأعرفهم بالأمانة وجهًا .

ثم استوص بالتجار وذوي الصناعات ، وأوص بهم خيرًا ، المقيم منهم والمضطرب بماله [٣] ، والمترفق ببدنه [٤] ، فإنهم مواد المنافع ، وأسباب المرافق ، وجلابها من المباعد والمطارح ، في بَرك وبحرك ، وسهلك وجبلك ، وحيث لا يلتئم الناس لمواضعها ولا يجترئون عليها ، فإنهم سلم لا تخاف بائقته [٥] ، وصلح لا تخشى غائلته ، وتفقد أمورهم بحضرتك ، وفي حواشي بلادك ، واعلم ـ مع ذلك ـ

---

(١) أي : سرورك بما ترى من حسن عدلك فيهم .

(٢) الاستنامة : السكون والثقة .

(٣) المتجول بين البلاد .

(٤) أي : المكتسب بيديه من ذوي الصناعات ، وهو من نسميه : «الحرفي» .

(٥) البائقة : الداهية .

أن في كثير منهم ضيقًا فاحشًا ، وشحًا قبيحًا ، واحتكارًا للمنافع ، وتحكمًا في البياعات ، وذلك باب مضرة للعامة وعيب على الولاة ، فامنع من الاحتكار ، فإن رسول الله ﷺ منع منه ، وليكن البيع بيعًا سمحًا ، بموازين عدل ، وأسعار لا تجحف بالفريقين من البائع والمبتاع ، فمن قارف [١] حُكرة [٢] بعد نهيك إياه فنكِّل به ، وعاقبه في غير إسراف .

ثم الله الله في الطبقة السفلى من الذين لا حيلة لهم ، والمساكين والمحتاجين ، وذوي البؤس والزَّمني [٣] ، فإنّ في هذه الطبقة قانعًا ومعترًّا [٤] ، فاحفظ الله ما استحفظك من حقّه فيهم ، واجعل لهم قسمًا من بيت مالك ، وقسمًا من غلاّت صوافي [٥] الإسلام في كل بلد ، فإنّ للأقصى منهم مثل الذي للأدنى ، وكلٍّ قد استرعيت حقّه فلا يشغلنّك عنهم بطر [٦] ، فإنك لا تُعذر بتضييعك الصغير لإحكامك الكثير المهم ، فلا تُشخص همك عنهم ، ولا تصعر خدّك لهم [٧] ، وتفقّد من أمور من لا يصل إليك منهم ، ممّن تقتحمه العيون ، وتحقّره الرجال ، ففرّغ لأولئك ثقتك من أهل الخشية والتواضع ، فليرفع إليك أمورهم .

وتعهّد أهل اليُتم وذوي الرقة في السن ممن لا حيلة له ، ولا ينصب للمسألة نفسه ، وذلك على الولاة ثقيل ، والحق كله ثقيل ، وقد يخففه الله على أقوام طلبوا العاقبة فصبروا أنفسهم ووثقوا بصدق موعود الله لهم ، واجعل لذوي الحاجات

---

(١) قارف : خالط .

(٢) الحُكرة ـ بضم الحاء : الاحتكار .

(٣) البؤسي : شدة الفقر والزمني : أصحاب الأمراض المزمنة «العاهات» .

(٤) القانع : السائل ، والمعتر : المتعرض للعطاء بلا سؤال .

(٥) صوافي الإسلام : الأرض التي استصفاها المسلمون عند الفتح لبيت المال وكانت ـ في الغالب ـ قبل الفتح مملوكة للملوك أو كبار القادة الذين بادوا أو هربوا ولم يدخلوا في السلم .

(٦) البطر : الطغيان بالنعمة .

(٧) تشخص : تصرف ، وصعَّر خده : أماله إعجابًا وكبرًا .

منك قسمًا [١] تُفرّغ لهم فيه شخصك ، وتجلس لهم مجلسًا عامًا فتتواضع فيه لله الذي خلقك ، وتقعد عنهم جندك وأعوانك من أحراسك وشرطك ، حتى يكلّمك متكلّمهم غير متعتع [٢] ، فإنّي سمعت رسول الله ﷺ يقول في غير موطن : «**لن تُقدّس أُمة لا يُؤخذ للضعيف فيها حقّه من القوي غير متعتع**» [٣] .

إن للولي خاصة وبطانة ، فيهم استئثار وتطاول ، وقلة إنصاف في معاملة ، فاحسم مادة أولئك بقطع أسباب تلك الأحوال ، ولا تقطعنَّ لأحد من حاشيتك وحامتك قطيعة [٤] ، ولا يطمعنَّ منك في اعتقاد عقدة تضر بمن يليها من الناس في شرب أو عمل مشترك ، يحملون مؤونته على غيرهم فيكون مهنًا [٥] ذلك لهم دونك وعيبه عليك في الدنيا والآخرة .

وإياك والاستئثار بما الناس فيه أسوة ، والتَّغابي عما تُعْنَي به مما قد وضح للعيون ، فإنه مأخوذ منك لغيرك ، وعما قليل تنكشف عنك أغطية الأمور ، وينتصف منك للمظلوم .

والواجب عليك أن تتذكر لمن تقدمك من حكومة عادلة ، أو سنة فاضلة ، أو أثر عن نبينا ﷺ وآله ، أو فريضة في كتاب الله ، فتقتدي بما شاهدت مما عملنا به فيها ، وتجتهد لنفسك في اتباع ما عهدت إليك في عهدي هذا ، وأنا أسأل الله أن يوفقني وإياك لما فيه رضاه» [٦] .

هكذا نجد الخلفاء الراشدين وهم يمارسون الحكم ويؤسسون الدولة لم نجد

---

(١) أي : المتظلمين ، أي تفرَّغ للنظر في مظالمهم .

(٢) غير متردد بسبب الخوف الذي يجعله عاجزًا كالعيي .

(٣) هذا الحديث أخرجه ابن ماجه في سننه .

(٤) الحامة : الخاصة والقرابة ، والقطيعة : المنحة الممنوحة من الأرض إقطاعًا .

(٥) المهنأ : المنفعة الهنيئة .

(٦) نهج البلاغة ، (ص٣٣٣ـ ٣٤٨) .

ديكتاتورًا ولا ظالمًا ، بل كانت أسس دستورية ومؤسسات حياتية ودواوين وقواعد حاكمة تساوي بين الحاكم والمحكوم .

*****

الحكومة الإسلامية

الحكومة الإسلامية [١]

هي التي تطبق شرع الله كاملًا غير منقوص ، فهل لأحد على هذا اعتراض ، مقدرة أن التحريم والتحليل ليس إليها ، ولكنه لله ، وأنها لا تملك إدخال أحد الجنة أو قذفه في النار ، وأن مسؤولية الحاكم أمام الله ، أضعاف مسؤولية أي فرد من رعيته ، فهو إذا جار أو ظلم أتعسهم حظًا يوم القيامة ، وهو إن استقام وعدل أوفرهم أجرًا يوم الحساب ، ليس من حق الحكومة الإسلامية أن تعتقل أو تحبس وتعذب أو تقتل أو تؤمم أو تصادر أو تستولي على مال أحد ، إلا في حدود ما أنزل الله ، في حكمة ودقة تتناسب مع ظروف العصر وملابساته ، كل ذلك داخل حدود الحل والحرمة ، وقد ثبت هذا عملًا ، فرسول الله ﷺ الذي جاء بعقيدة التوحيد ، صلى إلى الكعبة وعلى سطحها ما يزيد على الثلاثمائة صنم ، لأن الوضع كان يقتضي ذلك ، وجاء أبو بكر فحارب مانعي الزكاة خشية أن يهتز أساس تشريع الزكاة في نفوس المسلمين ، وفي ذلك من الإضرار بالمجتمع الإسلامي وما فيه ، وتبعهما عمر ابن الخطاب ، فأوقف حد القطع في أعوام الرمادة [٢] ، كما استخدم بعض الذميين في بعض شؤون الدولة ، وجعل في دواوينه الكثير من الروم ؛ لأن المسلمين لم يكونوا تمرسوا بمثل تلك الأعمال حينذاك ، أليست هذه إنجازات رائعة للحكومة الإسلامية ؟

ماذا تنكرون على حكومة إسلامية يقول نبيها ﷺ : «**والذي نفس محمد بيده ، لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ، ولتأخذن على يد السفيه ، ولتأطرنه على الحق**

---

(١) أ . عمر التلمساني ، كتاب الحكومة الدينية ، طبعة دار الكلمة .

(٢) لعدم توافر شروط إقامة الحد لوجود حاجة وعوز إلى الطعام والشراب فالحدود تدرء بالشبهات .

أطرًا ، أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض ، ثم ليلعنكم كما لعنهم» [١] ، ويقول : «**ما من قوم يعمل فيهم بالمعاصي ، هم أعز وأكثر ممن يعمله ، لم يغيروه إلا عمهم الله بعذاب**» [٢] ، ومن أعز وأكثر من الحكومة القائمة بالأمر ، أتنكرون هذه الحكومة ؟ وترضون حكومة تحمي البغاء ! وتبيح القمار وتفسح المجال للحانات والكباريهات ؟! إن قلتم : نعم ، فأنتم أهل فسق ، وإن قلتم : لا فأي شيء تنكرون ؟!

إني وربي لأخشى ، تحت هذا الفهم ، أن تدركنا النذر التي تحدث عنها رسول الله ﷺ ، فيما يرويه عنه ابن عمر : «**والذي نفسي بيده لا تقوم الساعة حتى يبعث الله أمراء كذبة ، ووزراء فجرة ، وأعوانًا خونة ، وعرفاء ظلمة ، وقراء فسقة ، سيماهم سيماء الرهبان ، وقلوبهم أنتن من الجيف ، وأهواؤهم مختلفة ، فيفتح الله عليهم فتنة غبراء ، ومظلمة ، فيتهاوكون فيها ، والذي نفس محمد بيده ، لينقضن الإسلام عروة عروة ، حتى لا يقال : الله ...الله ، لتأمرن بالمعروف ، ولتنهون عن المنكر ، أو ليسلطن الله عليكم شراركم يسومونكم سوء العذاب ، ثم يدعو خياركم فلا يستجاب لهم ، لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ، أو ليبعثن الله عليكم من لا يرحم صغيركم ، ولا يوقر كبيركم**» [٣] ، حقًا إني أسأل الله ضارعًا ألا تدركنا ويلات هذا الحديث بسبب ما تكتبون مناهضين لقيام حكومة إسلامية تحكم بما أنزل الله .

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير ١٠/ ١٨٠ (١٠٢٦٨) ، من حديث ابن مسعود ، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ٢٦٩) ، وقال : «رواه الطبراني من حديث أبي موسى ، ورجاله رجال الصحيح» ، وأبو داود في الملاحم (٤٣٣٣٦، ٤٣٣٣٧) ، والترمذي في تفسير القرآن (٣٠٤٧) ، وقال : حسن غريب ، وأحمد ١/ ٣٩١ ، وانظر : الترغيب والترهيب (٣/ ٢٨٨، ٢٢٩) .

(٢) أخرجه أبو داود في الملاحم (٤٣٣٩) ، وابن ماجه في الفتن (٤٠٠٩) ، وأحمد في المسند ٤/ ٣٦٤ ، ٣٦٦ كلهم من حديث جرير بن عبد الله ، وانظر : الترغيب والترهيب (٣/ ٢٢٩) .

(٣) أخرجه الإسماعيلي في معجم الشيوخ ٣/ ٢٧٧، ٧٢٣ (٣٣٨) ، وأخرجه البزار في مسنده ٧/ ٧٩ (٢٦٣٠) ، من حديث معاذ بن جبل ، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٥/ ٢٣٣) ، وقال : «وفيه حبيب ابن عمر الكلاعي ولم أعرفه وبقية رجاله رجال الصحيح» .

معالم الحكومة الإسلامية :

الحكومة الإسلامية ، التي تعرف واجبها ، وتقدر مهمتها ، تأخذ الإسلام على أنه عمل جاد ، ودأب متواصل ، لتقوم حضارة فاضلة عزيزة منيعة ، مليئة بالروحانيات والأخلاق ، وليسود في العالم سلام ضلت طريقه كل الدول التي تتغنون بأمجادها وتاريخها ، وكأنما الإسلام لا أمجاد له ولا تاريخ !! ما أتعس حظ أمة ، يتنكر بعض مفكريها لأدوارها الماجدة في هذه الحياة ، يتنكرون لأمة حافظت على الحضارات القديمة ، بترجمتها لكتب المنطق والاجتماع والفلسفة ، التي أوصلت الغرب إلى ما هو عليه ، بعد أن أهملنا كل أسباب العزة والإبداع .

الحكومة الإسلامية وخصومها :

لم يحدثنا التاريخ عن أمة رحيمة مجيدة ، ما حدثنا عن الحكومات الإسلامية في تعاملها مع خصومها ومحاربيها ، إن الحكومة الإسلامية إذا حاربت ، لم تحارب إلا دفاعًا عن حقها في تبليغ كلمة الله إلى الناس أجمعين ، وفي حربها لا تتجاوز المعنويات الإنسانية الحقة ، فهي تدفع الأعداء بمثل ما اعتدوا به بلا إمعان في الانتقام ، لا تنتهك حرمة ، ولا تعتدي على عرض ، ولا تتبع الفارين ، ولا تجهز على المجروحين ، ولا تعذب المأسورين ، من الذي لا يرضى عن قيام حكومة إسلامية على هذا الغرار ، إلا عديم الإحساس ، سقيم الوجدان ؟!

ما الذي يزعجكم من قيام حكومة إسلامية ؟ تطبق دستورًا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، دستورًا لا يمشي مع الأهواء ، ولا يخضع للنزوات والأغراض ، تنزيل من لدن حكيم عليم ، إن ترك التشريع للبشر ظلم ما بعده ظلم ، ذلك أن الظلم من شيم النفوس ، فإذا شرع الفرد ، فهو ناظر إلى مصلحته أو مصلحة طبقته ، أما شرع الله فهو لمصلحة البشر جميعهم ، مسلمهم وغير مسلمهم ، ليسود السلام إن رفضوا سيادة العقيدة ، إن الفرد معرض ، للجهل أو الحمق أو الغرور أو التعصب أو الظلم ، فأي ضمان لترك التشريع لمن هذا هو حاله ؟ لقد قامت في

مصر دساتير وضعية ، أنكرها الجميع أو الأغلبية الساحقة ، ثم ألغيت دستورًا بعد دستور ، وكل حاكم يأتي بدستور يمكن له في الحكم ، ويفرده بالتصرف في شؤون الرعية ، مهما ذكر فيه من حرية وأمان ، ولقد ذقنا الأمرين من كل هذه الدساتير ، هل يترك التشريع لعامة الناس ، ولهم أهواء ، وفيهم شطحات ، وبينهم خلاف ، وهم أوزاع ، فمن أين تأتي عدالة التشريع ، في مثل هذه الصورة ؟ أيترك التشريع لمجلس الشعب ، وفيه الـ(٥١٪) ، والـ(٤٩٪) من يضمن عدم تحكم فريق لفريق ؟ ولقد لمسنا بأنفسنا ، ما عادت به هذه النسب من عداوات بين أهل الوطن الواحد ، كل ذلك بحجة تذويب الفوارق ، وتكافؤ الفرص ، والقضاء على تفاوت الطبقات .

ومن هنا يتبين أن يكون التشريع صادرًا من جهة لا تظلم ولا تحابي ، إنها الذات العلية التي أوجدت هذا الكون بما ومن فيه ، ذات علية تعلم ما يضر وما ينفع ، ذات لا تنزل إلى الأرض ولكنها ترسل إلى الرسل ومعهم الكتب والموازين التي تخرج الناس من أدغال الاستبداد ، إلى بساتين الحرية والأمان ، تخرجهم من الاستعلاء إلى المساواة ، ومن الأثرة إلى الإيثار ، ومن الكسل إلى العمل ، ومن التواكل إلى التوكل ، ومن الخيانة إلى الأمانة ، ومن الحضيض إلى القمة ، ومن الذلة إلى العزة ، أليس من صالح الناس ، ألا تتحكم طبقة في طبقة ؟ أليس من صالح الشعوب والأمم أن يتوحد مصدر تشريعها ، حتى لا تخالف أهواؤها ، وتقوم المنازعات والحروب بينها ؟ ما عيب حكومة إسلامية تسير هذا السير الحميد ؟ أهذا خير أم التقلب في مختلف الدساتير بين حين وحين ؟! أنرضى بالخضوع لبشر مثلنا ، ونتعالى على الخضوع لمن خلقنا ورزقنا وأبدع تكويننا ، وفي يده وتحت سلطانه كل شيء ؟! كيف تفكرون يا جهابذة ؟ وماذا تريدون يا دعاة التقدم ولا تقدم ؟!

*****

الدولة
الإسلامية التي نريد

الدولة الإسلامية التي نريد

الدولة الإسلامية «المدنية» التي أسس لها الإسلام دولة مختلفة ليست من صنع البشر ولكنها محكومة بضوابط حاكمة منزلة من السماء وضع الله سبحانه وتعالى ضوابطها وشروط قيامها في كتابه العزيز حتى تحقق السعادة والرخاء للبشر وتحقق لهم مصالحهم .

وجعل هذه الضوابط والشروط عباده يتعبد بها الناس ، وليست شروطًا سياسية يأتي من يغيرها أو يبدلها وما نحن فيه من فساد وظلم واستبداد إلا لعدم توفير هذه الشروط .

فالشورى مثلًا شرط ، وقبل ذلك هي عبادة وفريضة .

والعدل زينة هذه الدولة وهو أمر شرعي يطالب به الحكام والمحكومين .

والحرية أصل الحياة ومن يسلبها من الناس ليس له جزاء إلا نار جهنم .

هكذا كلما اقتربنا من تحقيق هذه الشروط وأصبحت جزءًا من حياتنا تحقق لنا الأمن والأمان في الدنيا والآخرة .

وسنعرض أهم هذه الشروط في الصفات التالية :

الخلافة فيها بالبيعة والاختيار .

سلطة الأمة تمارس بواسطة الممثلين الشرعيين بالانتخاب .

الحكام فيها نواب عن الأمة ووكلاء عنها وليسوا وكلاء عن الله .

الأمة تختارهم وتراقبهم وتحاسبهم .

* أسسوا دولة مدنية كل نظمها ومؤسساتها وآلياتها تصنعها الأمة وتطورها وتغيرها بواسطة ممثليها حتى تحققت الشورى والعدل والمصالح المعتبرة للعباد .

السياسة فيها للشريعة الإلهية .

الأمة فيها مصدر السلطات ومستخلفة عن الله .

الدولة فيها مختارة من الأمة .

الترتيب فيها «الشريعة ، الأمة ، الدولة» .

السياسة فيها من الفروع والفقهيات وليست من أمهات العقائد الدينية .

الدولة فيها تعتمد التعددية الدينية والسياسية والفكرية .

*****

الدولة الإسلامية
تفرض الحرية

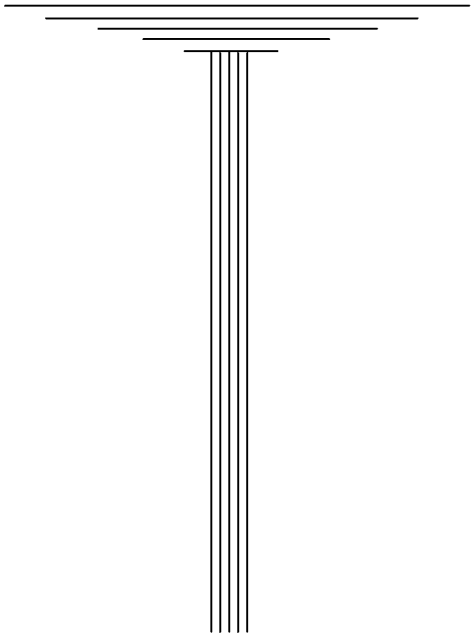

الدولة الإسلامية تفرض الحرية

الحرية : واحدة من أهم الضرورات .

وهي التي تحقق الحياة .

الإسلام أول من وضع نظامًا وتطورًا حقيقيًّا واقعيًّا لإنهاء حالة العبودية وإلغاء الرق .

رغب المسلمين في عتق الأرقاء وجعله قربة إلى الله .

إن الله جعل جزاء عتق رقبة العتق من النار .

إن الله جعل كفارة كثير من الذنوب عتق الرقبة .

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء:٩٢] .

﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُوا۟ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ .

[المائدة:٨٩]

﴿وَٱلَّذِينَ يُظَـٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة:٣] .

﴿وَهَدَيْنَـٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ .

[البلد:١٠ـ ١٣]

أن الله جعل عتق الرقاب مصرفًا من مصارف الصدقات وبيت المال : ﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة:٦٠] .

أن الله ﷻ جعل من البر الحقيقي عتق الرقاب : ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ [البقرة:١٧٧] .

بعد أن كان الرق مصدر ثراء للمسلمين مالكي الأرقاء فلقد شرع الإسلام لهم حقوق إلى أن أصبح تحريرهم لا يمثل أي خسارة فالرسول يقول : «**للمملوك طعامه وكسوته ، ولا تكلفونه من العمل ما لا يطيق**» . رواه مسلم .

الارتفاع بأنسابهم والحفاظ على مشاعرهم : «**لا يقل أحدكم : عبدي وأمتي وليقل : فتاي وفتاتي**» . رواه البخاري ومسلم .

جعل كفارة القتل الخطأ تحرير رقبة أي أن الحرية تساوي الحياة : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [النساء:٩٢] .

أسمى ما في الإسلام كفالة حرية الاعتقاد وعدم الإكراه في الدين :

﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ

ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة:٢٥٦] .

﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴾ [هود:٢٨] .

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس:٩٩] .

وحدد طبيعة ومهمة الرسول ﷺ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ [الأحزاب:٤٥]

﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾ [الغاشية:٢١، ٢٢] .

﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ ۖ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ [ق:٤٥] .

﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴾ [الأنعام:٦٦] .

﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ ۗ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴾

[الأنعام:١٠٧] .

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴾ [يونس:١٠٨] .

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴾ [الزمر:٤١] .

*****